الأخلاق الاسلامية في رأي ابن تيمية (١)

للدكتور مصطفى محمد حلمي

رفض ابن تيمية النتائج الميتافيزيقية للفلسفة اليونانية لتعارضها مع العقيدة الاسلامية ، وامتدت معارضته الى الأخلاق أيضاً . إذ أن غاية ما عندهم فيها (انهم رأوا النفس فيها شهوة وغضب من حيث القوة العملية ، ولها نظر من جهة القوة العلمية فقالوا كمال الشهوة في العفة ، وكمال الغضب في الحلم والشجاعة ، وكمال القوة النظرية في العلم) (٢) وسيأتي تفصيل المآخذ التي رآها في نظرياتهم الأخلاقية بالتفصيل .

كما تنبه الى عجز هذه الآراء عن اظهار القواعد الأخلاقية التي تحقق السعادة للانسان في حياته الراهنة والحياة الآخرة أيضاً . وأظهر شيخ الاسلام ما يتضمنه الكتاب والسنّة من نصوص واشارات الى أفكار حول الانسان وماهيته وسعية الحثيث الى تحقيق المنافع والملذات ، واجتنابه ما يجلب الأضرار والآلام . وظل في مؤلفاته يتمثل القوانين الأخلاقية الصادرة عن الله عز وجل في الأمر بفعل الحسنات والانتهاء عن السيئات ، ولم يملّ التأكيد على أن العبودية تتم بالمحبة لله تعالى والعمل بما أمر به . فان أصل الايمان هو تصديق القلب مع العمل أيضاً (الذي هو المحبة على سبيل الخضوع إذ لا ملاءمة لأرواح العباد أتم من ملاءمة الهها ، وهو الله الذي لا إله إلا هو) (٣) ومن ثم فإن (الأخلاق) ليست مجرد فرع من فروع الفلسفة كما عند الفلاسفة بحيث تتناول نظرية القيم فحسب فهي وثيقة الصله بقواعد الشرع لا تنفصل عنه . بل جعلها تدخل في دائرة العبادة . فان الله سبحانه وتعالى (أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بالاسلام والايمان بعبادة الله وحده . وتصديق الرسول فيما أخبر . فالأعمال عبادة الله ، والعلوم تصديق الرسول (٤) . والأعمال هنا شاملة للعبادات وغيرها من ألوان السلوك الانساني ، بل إن اتمام الدين بوساطة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم . قام على أساس إحلال كل طيب وتحريم كل خبيث (٥) . وعلى هذا فان الحكم على الفعل الخلقي ينبغي أن يستند على قواعد التحليل والتحريم . ولا بد أن يستمد عنصر الالزام والتكليف من الشّرع . وسنرى أنه يثبت حرية الانسان في أفعاله ليصبح مسئولاً عنها . وأن الشّر ينسب الى نفسه .

---

(١) هو احمد بن عبد الحليم تقي الدين بن تيمية
ولد في حران بالشام يوم العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ
بدأ الافتاء والتأليف وعمره تسع عشرة سنة وتولى التدريس في مسجد دمشق وعمره احدى وعشرون سنة اضطهد بسبب بعض الآراء التي اجتهد فيها مستنداً الى الكتاب والسنة وأقوال السابقين من السلف الصالح ، ولكنه لم يأبه ، وقال قولته المشهورة (ان حبسي خلوة ، وقتلي شهادة واخراجي من بلدي سياحة) . اشترك في حرب التتار بنفسه وتوفي في ليلة الثاني والعشرين من ذي القعدة عام ثمان وعشرين وسبعمائة من الهجرة وكان يتلو القرآن متوقفاً عند قوله تعالى (ان المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

(٢) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ج ٤ ص ١٠٥ .

(٣) ابن تيمية (توحيد الربوبية) ص ٤٠

(٤) ابن تيمية / النبوات ص ٨٦ (٥) ابن تيمية /رسالة الحسبة ص ٦٣

وتفصيل القول في الأفكار ذات الطابع الأخلاقي التي يمكن استخلاصها من مؤلفات ابن تيمية ، اننا نستطيع وضعها في نسق نظرية أخلاقية متكاملة . وان كان لم يتبع مناهج الفلاسفة في تقسيمهم للمباحث التقليدية ، ولكننا سنحاول أن نستقرىء هذه النظرية من سياق أفكاره التي تتصل بمباحث علم الأخلاق .

ولننظر الآن في أفكار الشيخ لنوضح العناصر الأخلاقية ونضعها في الترتيب الآتي :

أولاً : نقده لنظريات الفلاسفة الأخلاقية .
ثانياً : الشّرع مصدر الالزام الخلقي .
ثالثاً : الانسان بين رغباته الحسية وارادته .
رابعاً : النفس : سعادتها وشقاؤها .
خامساً : مركز النية في السلوك .
سادساً : محاسن الأخلاق .

اولاً : نقده لنظريات الفلاسفة الأخلاقية :

قلنا إن ابن تيمية عارض آراء الفلاسفة الأخلاقية ، ونفصّل الآن المآخذ التي وجهها الى الفلاسفة اليونانيين ومن تأثر بهم من المسلمين ، فهو يرى أن ما ذكروه من العمل لا يخضع لقواعد ملزمة ، وانما هو متعلق بالندب . كما أنهم لم يثبتوا خاصية النفس وهي محبة الله وتوحيده . بل لم يعرفوا كمال تلك ، كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مشتمل على كثير من الباطل بينما يتحقق كمال النفس في العلم والارادة معاً (٦) .

ان الخطأ والقصور يرجعان الى ثلاثة أسباب : السبب الأول أن الحكمة النظرية عندهم وهي أصل العمل لا تتضمن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو العلم الذي تهتدي به النفوس ، والسبب الثاني أن الحكمة العملية ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس الانسانية وتنجو من عذاب الله ، لهذا لم يكونوا داخلين في أهل السعادة في الآخرة المذكورين في قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة (٦٢) والسبب الثالث أن غاية الحد الأوسط هو تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم ، أي أن مقصودهم ترك الاسراف فيهما ، أضف الى ذلك أن الفلاسفة لم يضعوا حداً فاصلاً قاطعاً بين ما تحصل به النجاة والسعادة وما يسبب الشقاء والعذاب . وهذا ما فعله الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين بيّنوا ذلك وأوضحوه . وقد قال سبحانه وتعالى : (قل انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وان تقولوا على الله مالا تعلمون) الأعراف / ٣٣ . ويظهر من هذه الآية التحريم المطلق بلا اباحة لأحد من الخلق بأي حال من الأحوال بخلاف الدم والميتة ولحم الخنزير وغير ذلك فانه يحرم في حال ويباح في حال (٧) .

---

(٦) ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤ ص ١١٠
(٧) ن . م . ص/١٠٨/١٠٩

والتعليل للتحريم المطلق يرجع في رأي ابن تيمية الى أن الفواحش متعلقة بالشهوة . والبغي بغير الحق يتصل بالغضب ، والشرك بالله فساد في أصل العدل . فالشرك ظلم عظيم . وفساد العلم يرتبط بالقول على الله بغير علم ، وهكذا حرّم سبحانه وتعالى (هذه الأربعة وهي فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم) (٨) . ويظهر لنا مما تقدم انه يهتم باستخراج القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوك الانسان ، وأنه يخضع هذا السلوك لنظام محدد استخلصه من القرآن الحكيم .

ثانياً : الشرع مصدر الالزام الخلقي :

اذا اخترنا تعريف (سدجويك) للأخلاق بأنها مجموعة قوانين شرعها للناس إله (٩) ، فاننا نجد هذا المفهوم أكثر دقة وتفصيلاً عند الشيخ السلفي . إذ أوضح أن رسالة الرسل والأنبياء جميعاً جاءت بأمر عبادة الله سبحانه وحده في مثل قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل / ٣٦ وقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون) الأنبياء / ٢٥ وقوله : (لما ذكر قصص الأنبياء) : (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، وتَقَطّعُوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون) الأنبياء / ٩٢ . وقوله : (ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) الذاريات /٥٦ نفهم من هذه الآيات وغيرها أن الغاية التي تتم بها سعادة البشر ونجاتهم هي عبادة الله وحده حيث أرسل الرسل والكتب لهذه الغاية ، فلا تصلح النفوس وتزكو إلا بها ، ويفسر ابن تيمية قوله تعالى : (ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) فصلت / ٧ بأنهم لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان . ومن ثم فانهم يستحقون العذاب لقوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء / ٤٨ . وفي هذا الأمر تتفق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع رسالتي موسى وعيسى عليهما السلام . حيث وردت أول الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى حيث قال له :) (أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر .) . وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذه هي أعظم وصية في الناموس ، وهكذا اتفقت كثير من الكتب الإلهية على عبادة الله وحده ، فلا نجاة للنفس الانسانية ولا سعادة ولا كمال (إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذي لا أحب اليها منــه (١٠) .

وقد أخبر الله تعالى في غير موضع من القرآن عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وتفسير هذه الآيات أنه بتلاوتها يحصل العلم لأن الآيات هي الدلالات والعلامات أي أنها تدلهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر به (وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته ، فالتزكية تكون بطاعة أمره) (١١) .

مفهوم الدين إذن له شقان أحدهما هو تزكية النفس بعبادة الله وحده ، والثاني الطاعة فيما أمر به الله سبحانه . فجماع الدين أمر ونهي (١٢) . وقد وردت الآيات التي تصف محمداً صلى الله عليه

---

(٨) ن . م . ص ١٠٩ ج ٤

(٩) سد جويك/ المجمل في تاريخ علم الأخلاق ص ٧٨

(١٠) ابن تيمية / الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ص ١٠٦

(١١) ابن تيمية / النبوات ص ١٧٢

(١٢) الحسبة ص ١٠

وسلم . بأنه (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) . الأعراف / ١٥٧ ومنها يظهر كمال رسالته (فانه صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهي عن كل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث) (١٣) . وجاءت الحدود والعقوبات داعية الى فعل الواجبات وترك الحرمات ، ولم تفسد أمور كثيرة من الناس إلا بسبب تعطيل الحـدود الشرعية (١٤) .

وساق ابن تيمية الحديثين المشهورين الدالين على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . أحدهمـا (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، والثاني (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فكان الناس يطوفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون لولا موضع اللبنة فأنا تلك اللبنة) .

أما الرسل قبله . فقد كان الله تعالى يحرّم على أممهم بعض الطيبات كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم) النساء ١٦٠ . وكما قال : (كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) فربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث . وقد أكمل الله تعالى الدين للأمة الاسلامية بقوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) المائدة / ٣ وجعل ميزة هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فوصفها بما وصف بها نبيها إذ لم يتم الأمر بجميع المعروف والنهي عن كل منكر إلا بوساطة الرسول (الذي تمّم الله به مكارم الأخلاق المتدرجة في المعروف (١٥) .

ويهتم ابن تيمية بتفاصيل العقوبات الشرعية إذ لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بها . فيوضّح الحدود التي يقيمها ولاة الأمور لأن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن (١٦) .

ويتضح من كل ما تقدم أن مجموعة القوانين الأخلاقية المتدرجة تحت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها صفة الالزام . ولهذا فقد شرعت العقوبات داعية الى فعل الواجبات . وترك المحرمات(١٧) .

ولئن كان الثواب والعقاب من جنس العمل في قدر الله . فان من عدله سبحانه الذي تقوم به السماء والأرض أن يكون ذلك في شرعه أيضاً (ولهذا شرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص في الدماء والأموال (١٨) . بل أنه ينبغي حسم مادة الشر والمعصية وسد ذريعته . مثال ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا يخلون الرجل بامرأة . فان الشيطان ثالثهما) . ونهى عن الخلوة بأجنبية والسفر بها لأنه ذريعة الى الشر ، وقد تقيد الخلفاء الراشدون بهذه القواعد وطبقوها (١٩) .

ونرى أن ابن تيمية يتخذ موقفاً سلبياً في رده الالزام في القوانين الأخلاقية الى ارادة الله وأحكامه المطلقة .

---

(١٣) المصدر نفسه ص ٦٣
(١٤) السياسة الشرعية ص ٨٥/٨٦
(١٥) ابن تيمية /الحسبة ص ٦٤
(١٦) المصدر نفسه ص ٥٠
(١٧) السياسة الشرعية ص ١٦٢
(١٨) الحسبة ص ٦٢
(١٩) السياسة الشرعية ص ١٦٣ وما بعدها

ثالثاً : الانسان بين رغباته الحسية وارادته :

يعرّف ابن تيمية الانسان بأنه (حيّ حساس متحرك بالارادة) (٢٠) فلة إرادة دائماً . أما الغاية من هذه الارادة فهي، إما المال وإما الجاه، وإما محبة الرجل للمرأة، وإما محبته للرجل، وإما غير ذلك من الأمور المطلوبة في الدنيا . أما كمال الانسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه، فيصبح منتهى حبه فتتحقق له العزّة . لأن من لم يكن عبداً لله، فلا بد من أن يصبح عبداً لغيره من أنواع المحبوبات التي تستعبده (٢١) .

ولهذا كان المثل الأعلى الذي ينبغي أن يسير بمقتضاه سلوك الانسان المؤمن أن يكون مراده هو الإله (الذي يستحق أن يكون محبباً لذاته. وهذا هو العلة الغائية الذي هو علة فاعلية للعلة الفاعلة) (٢٢) . اننا نراه هنا يرد أخلاقية الفعل الى النتائج والآثار، الى البواعث أيضاً، فالنفوس في حاجة الى الله من حيث هو معبودها ومحبوبها ومنتهى مرادها . ومن حيث هو ربها وخالقها (٢٣) . فالباعث على السلوك هو محبة الله جل شأنه . أما الهدف فهو أن يراد بالأعمال وجه الله . وقد جاء الحديث يؤيد هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن أول ثلاثة تسجر بهم جهنم رجل طلب العلم وعلمه وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس هو عالم وقارىء . ورجل قاتل وجاهد ليقول الناس هو شجاع وجرىء، ورجل تصدق وأعطى ليقول الناس جواد سخي) ان هؤلاء الثلاثة الذين يبتغون الرياء والسمعة يقفون على طرف النقيض من أولئك الذين جعلوا أعمالهم ابتغاء مرضاة الله وحده، فكانوا على القمة من حيث الأفعال الأخلاقية كما يريدها الاسلام، حيث أوردهم الله سبحانه بعد النبيين في المرتبة وهم الصديقون والشهداء والصالحون (فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسله وعلمه لوجه الله كان صديقاً، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقتل كان شهيداً، ومن تصدّق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحاً) (٢٤) .

فالانسان اذن له إرادة وعمل بهذه الارادة، واذا كان يستهدف بإرادته طلب اللذة في المأكولات والمشروبات وما تشتهية الأنفس بما أحل الله، فهذه كلها من قبيل نعم الله على عباده، فقد تعرّف الله سبحانه الى عبده بالنعم ليشكره منذ ولادته طفلاً . فالحياة نعمة، وادراك اللذات نعمة (وأما الايمان فهو أعظم النعم، وبه تتم النعم) (٢٥) .

واذا كان لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فان حب العبد لربه يحرك ارادة القلب، وبقدر هذه المحبة يقدم الانسان على فعل ما يرضي الله (فاذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة في حصول المحبوبات) (٢٦) ويضرب ابن تيمية على ذلك مثلاً بالجهاد الذي هو بذل ما في وسع المؤمن وقدرته في تنفيذ ما يحبه الله ودفع ما يكرهه . والمحب لله ولرسوله يحتمل أكثر من غيره ممن يطلبون أغراضاً أخرى . كطلب الرياسة أو المال أو أمور أخرى قد تجلب لهم ضرراً ويسلكون طرقاً متعددة للحصول على مطلوباتهم . ومن ثم يخضعون لهذه الرغبات والأهواء بينما المؤمن أشد حباً لله كما وصفه الله تعالى بقوله « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله »

---

(٢٠) ابن تيمية العبودية في الاسلام ص ٣٢
(٢١) المصدر نفسه ص ٣٢
(٢٢) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٠٩
(٢٣) المصدر نفسه ص ١٠٧/١٠٨
(٢٤) الحسبة ص ١١٠
(٢٥) ابن تيمية / جامع الرسائل ص ١١٠
(٢٦) العبودية في الاسلام ص ٣٠
(٢٧) ن . م . ص ٣١

البقرة ٥٦١ وهنا يقول ابن تيمية (اذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه . وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه) (٢٧) .

ولكنه يضع شرطاً لهذه المحبة حتى يصبح سلوك الفرد بما يرضي الله ، لأنه اذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفي النفس محبة انبسطت النفس بحقها فتقع في الرذائل (٢٨) . ولهذا فانه يقرن بالمحبة شرط الخوف من الله والرجاء في ثوابه والنجاة من عقابه . مستشهداً بقول من قال من السلف (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق . ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري . ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن) (٢٩) .

ومع هذا تبقى المحبة أصلاً لكل عمل ديني حيث يرجع اليها الخوف والرجاء والدليل على ذلك الآيات القرآنية التي تتناول الرجاء والخوف : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه » الاسراء ٥٧ فان (الراجي الطامع انما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه . والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب) (٣٠) .

رابعاً : النفس سعادتها وشقاؤها :

للنفس قوتان القوة العلمية . والقوة العملية (٣١) كما أن لها نوعين من الحياة : احداهما طبعية كحياة البهائم ، وهي ليست الحياة الكاملة النافعة التي خلق لأجلها الانسان . والثانية الحياة الكاملة النافعة . أي ما ينتفع به الحي لأنه لا بد له من لذة يريدها أو ألم يتجنبه .

والنفس بطبيعتها متحولة ، فهي حية . والارادة والحركة الارادية من لوازم الحياة . والارادة والعمل من لوازم ذاتها (فاذا هداها الله علّمها ما ينفعها وما يضرها . فأرادت ما ينفعها وتركت ما يضرها) (٣٢) .

وقد تفضل الله سبحانه على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة : الفطرة والهداية العامة .

ففيما يتعلق بالفطرة . يأتي ابن تيمية بتفسيره للآية (واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) الأعراف ١٧٢ ، وقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم) الروم . ٣٠

وكذلك الحديثان : قوله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقوله (يقول الله تعالى – خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً) (٣٣) .

ويستخلص ابن تيمية من ذلك أن النفس اذا تركت بفطرتها كانت مقرة لله بالالوهية محبة له وتعبد اياه لا تشرك به شيئاً . ولكن سبب فسادها أن شياطين الانس والجن يفسدونها بما يوحي بعضهم الى بعض من الباطل (٣٤) .

---

(٢٨) ن . م . ص ٣٩

(٢٩) جامع الرسائل ص ١١٢

(٣٠) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٧١

(٣١) ابن تيمية / الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٠٩

(٣٢) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٦٥

(٣٣) الحديث الأول ورد في الصحيحين ، والثاني ورد في صحيح مسلم

(٣٤) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٦٦

وأما الهداية فهي هداية الله سبحانه بما جعل في بني البشر بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل من الكتب وأرسل من الرسل . إذ يتضح من قصص الأنبياء اشتراك نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل . ولم يكن بالبشر حاجة الى الاعتبار بمن لا يشبههم ولكن الأمر كما قال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم . تشابهت قلوبهم) البقرة / ١١٨ وقوله عز وجل : (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) ، وتظهر الحجة لأنه لولا (أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله – لم يكن بنا حاجة الى الاعتبار بمن لا نشبهه قط) ٢٤) .

ولذلك تتمثل الهداية العامة للناس فيما جعل الله فيهم بالفطرة من المعرفة وأساليب العلم ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم) . وقال تعالى (الرحمن علّم القرآن . خلق الانسان . علّمه البيان) ، وقال تعالى : (سبّح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى ، والذي قدّر فهدى) وقال عز وجل (وهديناه النجدين) البلد / ١٠ .

وأفضل النعم التي تتم بها السعادة هي نعمة الايمان .

وهناك أيضاً من النعم الظاهرة التي تسر بها النفس ولكن يخفى عليها حكم لاتظهر لها من حيث أنها تكفّر خطايا أو تثاب عليها عندما نصبر عليها (٣٦) .

وقد خلقت النفس الانسانية متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشرّ لحكمة بالغة ورحمة سابغة واذا لم نخلق بهذا الوجه لكانت لخلق آخر غير الانسان ، وهذا هو الاستفسار الذي ورد على لسان الملائكة في قوله تعالى : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) البقرة / ٣٠ (٣٧) .

والذنب من لوازم نفس الانسان . ولذا فهو يحتاج الى الهدى في كل لحظة ، بل انه الى الهدى أحوج منه الى المأكل والمشرب . وطلب الهدى في دعاء الفاتحة يعني أن العبد فقير الى ربه عز وجل ، وهو في حاجة دائماً الى تعليم ربه (فالقرآن والسنّة انما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية . . . لا يذكر ما يخص به كل عبد . ولهذا أمر الانسان في مثل ذلك بسؤال الهدى الى الصراط المستقيم يتناول هذا كله : يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ، ويتناول الهام العمل بعلمه (٣٨) فالانسان في حاجة دائمة الى هداية ربه في العلم والعمل .

ولئن كان الذنب شراً بالاضافة الى العبد ، فان الحكمة منه تتضح في حالتين :

الأولى ان الذنب يوجب ذل العبد لربه سبحانه وتعالى فيحصل للمؤمن بسبب ذنبه من الحسنات ما لم يكن يحصل له بدونها ، كذلك فانه إما أن يتوب فيصبح من التوابين الذين يحبهم الله . وإما أن يكفر الله عنه بالمصائب . يصبر عليها فترتفع درجاته (٣٩) .

والثانية : ان الانسان يظل حذراً من نفسه ولا يركن اليها لأنها مصدر الشر . فيستعيذ بالله من شرورها ومن سيئات أعماله سائلاً الله عز وجل اعانته على الطاعة (فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر) (٤٠) .

---

(٣٥) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٨٤
(٣٦) المصدر نفسه صفحة ٧٢
(٣٧) المصدر نفسه ص ٧٩/ ٨٠ .
(٣٨) ابن تيمية / امراض القلوب وشفاؤها ص ١٣
(٣٩) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٨٣
(٤٠) المصدر نفسه ص ٨٣

ولكن ، متى يصبح السلوك أخلاقياً من وجهة نظر شيخ الاسلام ؟

ان الباحثين في مجال الأخلاق متفقون بوجه عام على أنه من الضروري أن يصاحب الفعل الأخلاقي حالة عقلية خاصة ، وأن يكون للانسان مقصد معين ، وغرض يسعى اليه ، وباعث أو ميل يدفعه للعمل حتى يتيسر لنا أن نعتبر العمل خيراً من وجهة النظر الأخلاقية (٤١) .

واذا طبقنا هذه القاعدة على الاتجاه الأخلاقي عند ابن تيمية ، فاننا نراه مقيداً بعدة أسس في شرحه لموقف الانسان من الاقدام على فعل الحسنات ، أو اقتراف السيئات ، وأسباب اقدامه على هذه الأفعال أو تلك ، فمن خصائص العقل عنده أن يسعى الانسان لجلب ما يفيده ودفع ما يضره ، فاذا اجتمع العقل والعلم ، ردع العبد نفسه عن السيئات ، لأن العالم هو الذي يخشى الله ، كما قال السلف وذلك تفسيراً لقوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر ٢٨ وذلك (يقتضي أن كل من خشي الله فهو عالم) (٤٢) ، والعلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخشية الدافعة إلى فعل الحسنات وترك السيئات ، وعلى العكس فان كل عاص (هو جاهل ، ليس بتام العلم) (٤٣) .

وفعل السيئات يرجع الى اجتماع الجهل مع الهوى ، فان الغاية إما أن يعرفها الانسان معرفة مؤكدة فيتجنب إتيانها ، وإما أن يجزم بضرر مرجوح ، فلا يفعل السيئة ، لأن مرتكب الذنوب لن يقدم على فعلها اذا علم أنه سيعاقب ، فان عدم الجزم أو العجز عن الترجيح فربما يسبب الغفلة (والغفلة من أضداد العلم) (٤٤) .

أما أعظم السيئات فهي جحود الخالق جل شأنه والشرك به ، كما فعل إبليس وفرعون ، فالأول يريد أن يعبد ويطاع من دون الله وأن يصرف الانسان عن عبادة الله وطاعته ، والثاني ادعى الألوهية بقوله (أنا ربكم الأعلى) النازعات / ٢٤ وقوله لموسى عليه السلام (لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) الشعراء / ٢٩ ويرى ابن تيمية أن في سائر النفوس شعبة من ظلم وجهل هذين الجاحدين فان لم (يعن الله العبد ويهديه وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الامكان) (٤٥) لأنه في تخيله للنفس البشرية يلاحظ أنها مشحونة بحب العلو والرياسة (٤٦) .

يضاف الى ذلك أن النفس لا تحمل داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له والتعدي عليه في حقه فحسب بل إن فيها أيضاً داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث . ولذا يقسم الناس ثلاثة أقسام : الأول من يرضى اذا اعطي مما يشتهيه من الشهوات والحلال والحرام ويزول غضبه ، فهو ينظر الى المعروف والمنكر من زاوية رغباته فان أعطى رضى وان لم يعط سخط ، فهو أحياناً ينكر المعروف ويحبذ المنكر طبقاً لما حصل عليه . وهذا هو الانسان الظلوم الجهول .

والثاني قوم لهم ديانة صحيحة يخلصون لله وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يخلصون لله وحده ويصبرون على ما يلاقون من أذى ، فهم من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر يؤمنون بالله .

---

(٤١) سد جويك / مجمل تاريخ الأخلاق ص ٦٩
(٤٢) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٦٣
(٤٣) المصدر نفسه ص ٦٥
(٤٤) المصدر نفسه ص ٦٠
(٤٥) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٨٦
(٤٦) المصدر نفسه ص ٨٦
(٤٧) ابن تيمية / الحسبة ص ٨٨

والقسم الثالث قوم يجتمع فيهم ما لبعض القسمين الأول والثاني وهم أغلب المؤمنين (٤٧) ، أما تقسيمهم من حيث نفوسهم فالأولون هم أصحاب النفس الأمارة بالسوء والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) الفجر ، وأهل هذا القسم هم أصحاب النفوس اللوامة التي تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها عليه وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً (٤٨) .

ولكن ، ما الباعث الأخلاقي الذي يدفع الانسان الى ارتكاب السيئات دون الحسنات ؟

يجيب ابن تيمية عن ذلك بأن سبب ما يوقع الناس في السيئات هو الجهل أي عدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً أو الظن بأنها تنفعهم نفعاً راجحاً . (ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية . فانه يصاحبها حال من حال جاهلية) (٤٩) .

ولم يترك ابن تيمية المسألة معلقة ، بل قدم الحلول التي تأخذ بيد الانسان الى فعل الحسنات (٥٠) ، وهي خشية الله ، والقضاء على الهوى بالاخلاص ثم التوبة عملاً بقوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) الأنعام ٥٤ ، فلا يزال المؤمن يخرج من الظلمات الى النور ويتجدد له العلم والايمان فيتوب مما تركه وفعله . ويزداد هدى (والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنب المشار اليه في الآية (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) المطففين ١٤ . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ان العبد اذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء . فان تاب واستغفر صقل قلبه ؛ وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه) (٥١) .

ان دافع السلوك ينبغي إذن أن يكون العبودية لله سبحانه واتباع أوامره واجتناب نواهيه وباختصار هو تزكية النفس التي يتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك عن طريق اتيان العمل الصالح وفعل الحسنات ، فالعمل الصالح (هو فعل الاحسان . والحسنات هي ما أحبه الله ورسوله . وهو ما أمر به من ايجاب واستجواب) (٥٢) .

خامساً : مركز النية في السلوك :

في بحث ابن تيمية عن أهمية الأمور الباطنة من العلوم والأعمال عرض لعدة مسائل ترتبط بضرورة الصدق والاخلاص وعقد النية . وكلها تتصل بالحديث : (القلب ملك والأعضاء جنوده . فاذا طاب الملك طابت جنوده . واذا خبث خبثت جنوده) ، ومن هذا الحديث يتطرق الى علاقة البواعث بالسلوك . وهي من المسائل التي أثارت اهتمام علماء الأخلاق . فاذا بحثنا في النتائج التي وصل اليها شيخ الاسلام ، فاننا نراه يقرر أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال (وان الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها) (٥٣) . ومفهوم الدين عنده يتسع فيشمل العقائد والعبادات وقواعد السلوك حيث وقع اختياره على الآية الجامعة التي تتناول كل هذا في قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي

(٤٨) المصدر نفسه ص ٨٨
(٤٩) ابن تيمية / الحسنة والسيئة ص ٦٢
(٥٠) العبودية في الاسلام ص ٢٧
(٥١) جامع الرسائل / ص ٢٣٧
(٥٢) ابن تيمية / العبودية في الاسلام ص ١٨
(٥٣) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٤٣

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) البقرة ١٧٧ .

ويذكر ابن تيمية أن هذه الآية في وصف الصادقين في دعوى البر (الذي هو جماع الدين) (٥٤) وعلى العكس وردت آيات تصف المنافقين في مثل قوله تعالى : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) البقرة / ١٠ فوصفهم بالكذب في هذه الآية وغيرها ، فالصادق هو الذي يصدق في قصده ونيته وطلبه وارادته وعمله وخبره وكلامه . والمنافق على الضد يكذب ، ويصبح مرائياً في عمله ، لا يصدر عنه نية صادقة . قال الله تعالى : (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس) النساء ١٤٣ .

والاخلاص في العقيدة والعمل هو حقيقة الاسلام (إذ الاسلام هو الاستسلام لله لا لغيره) (٥٥) ويندرج تحته الأعمال الباطنة كمحبة الله ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، والرضا عنه ، ونحو ذلك ، وهي كلها (خير محض ، وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (٥٦) ثم يقرر ابن تيمية بعد هذا أن النية للعمل كالروح للجسد (٥٧) .

ويقع اختيار ابن تيمية على حديث قدسي يستشهد به في مجال العمل وبواعثه في صلة العبد بربه عز وجل ، وصلته بالناس أيضاً ، فقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال (يقول الله : يا ابن آدم انما هي أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقي . فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي هي لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون اليه ، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الاجابه ، وأما التي بينك وبين خلقي فات للناس ما تحب أن يأتوا اليك) . ويشرح ابن تيمية هذا الحديث فيوضح أن العبد يحب ويريد ابتداء ما يراه ملائماً له ، والله تعالى يحب ويرضى الغاية المقصودة في رضاه ، والوسيلة المتبعة في ذلك (٥٨) . ونحن نفهم من الحديث أيضاً القاعدة التي تحدد علاقة الناس بعضهم ببعض في الأعمال .

واذا كان لا بد من النية في القلب ، فان القلب يحتاج الى أن يتربى وينمو عن طريق تزكيته ، ووسيلته القرآن الذي يزيل الأمراض الموجبة للارادات الفاسدة ، (حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التي فطر عليها ، كما يعود البدن الى الحال الطبيعي . ويتغذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده ، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقوّمه ، فان زكاة القلب مثل نماء البدن (٥٩) .

والأعمال تابعة للاعتقادات ، فإن صلحت صلحت ، وان فسدت فسدت أيضاً ، ولذا فإن الله يحاسب العبد على النية حتى لو لم يقدم على العمل ، فإن من كان عازماً على الفعل عزماً جازماً ، وفعل ما يقدر عليه منه ، كان بمنزلة الفاعل (كما جاء في السنن فيمن تطهّر في بيته ثم ذهب الى المسجد ليدرك الجماعة فوجدها قد فاتت ، انه يكتب له أجر صلاة الجماعة (٦٠) ، وكذلك من همّ بسيئة ولم يفعلها كتب له حسنة كاملة ، وهذا هو تفسيره لقوله تعالى : (ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى

---

(٥٤) المصدر نفسه ص ٤٢
(٥٥) المصدر نفسه ص ٤٣
(٥٦) المصدر نفسه ص ٤٤
(٥٧) السياسة الشرعية ص ٧١ انظر أيضاً ص ١١٦
(٥٨) التحفة العراقية ص ٤٦
(٥٩) امراض القلوب وشفاؤها ص ٦
(٦٠) فتاوى ابن تيمية جـ١ ص ١٠١

برهان ربه) يوسف ٢٤ . والبرهان المذكور في الآية هو برهان الايمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به ، وكتب له حسنة كاملة . ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيراً ولم يفعل سيئة) (٦١) .

مما تقدم يتضح أن ابن تيمية يقرر انه لا بد للعمل من ركنين : النية والحركة . مستنداً الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (أصدق الأسماء حارث وهمام) ويقول : (فكل أحد حارث وهمام له عمل ونية . لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها ان يراد الله بذلك العمل ، والعمل المحمود هو الصالح وهو المأمور به (٦٢) .

سادساً : محاسن الأخلاق

وهنا يتخذ شيخ الاسلام من العبادات الدعامة الأساسية لمحاسن الأخلاق ومكارمها : ففي دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يجعل ابن تيمية في باب المعروف أعمال العبادات كلها ، والايمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . والاحسان وهو ان يعبد الانسان ربه كأنه يراه فان لم يكن يراه فان الله يراه ، وسائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة أي اخلاص الدين لله والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخشية من عذابه والصبر لحكمه والتسليم لأمره . وكلها من الأمور التي تلمح فيها مدى قوة البواعث على الأعمال . ثم يقرن ابن تيمية بين العبادات وغيرها من أنواع السلوك التي تعد أقرب إلى محيط الأخلاق ، ولكن الاقتران يدلنا على انه لا يفرق بينها وبين أعمال العبادات لأن قواعد الأخلاق في الاسلام لا يمكن فصلها عن أصوله . انه بعد سرد تفاصيل أعمال العبادات على سبيل الحصر ، يأتي بغيرها من الأعمال بقوله : (ومثل صدق الحديث ، والوفاء بالعهود ، وأداء الامانات ألى أهلها ، وبرّ الوالدين ، وصلة الأرحام . والتعاون على البرّ والتقوى . والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والسلوك ، والعدل في المقال والفعال) .

وهكذا يضم ابن تيمية هذا كله تحت اسم (المعروف) المأمور به . ويبدو انه يعد ما ورد في آخر عبارته من قبيل أخلاق الكافة التي ينبغي عليهم التقيد بها . ثم يذكر بعد ذلك ما يرتقي بالانسان الى مكارم الأخلاق المندوب اليها . مثل (أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك) . قال الله تعالى : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئكَ ما عليهم من سبيل (٤١) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٢) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (٤٣)) الشورى (٦٣) .

يفهم من هذه الاية ان محاسن الأخلاق تقتضي (أن تصل من قطعك بالسلام والاكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له ، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك في دم او مال او عرض) ، ويعتبر ان بعض هذا واجب ، وبعضه مستحب (٦٤) .

---

(٦١) امراض القلوب وشفاؤها ص ٩

(٦٢) الحسبة ص ٧٦

(٦٣) ابن تيمية / مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ٣١٦/٣١٧

(٦٤) المصدر نفسه ص ٢٣٤

اما الخلق العظيم – الذي وصف به الله محمداً صلى الله عليه وسلم – فانه يعني (الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً) . وهو أيضاً ما عبرت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها : (كان خلقه القرآن) ، وحقيقة ذلك (امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر) (٦٥) .

ويتضح لنا بدليل آخر فهم ابن تيمية لشمول دائرة الاسلام جوانب العقائد والعبادات والاخلاق أيضاً . لأن بيان ما تقدم كله يدخل تحت الأمر بتقوى الله . فان تقوى الله تجمع (فكل ما أمر الله به ايجاباً واستحباباً وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً . وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد) (٦٦) ، ومضى شارحاً ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه الى اليمن : (اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) . فقد تضمن هذا الحديث حق الله من عمل الصالح واصلاح الفاسد ، وحق الناس وهو ان يخالقهم بخلق حسن (٦٧) . وتقوى الله تشمل هذا كله لأن التقوى هي (فعل ما امر الله به وترك ما نهى الله عنه) (٦٨) . والتقوى أيضاً هي الدين كله (لكن ينبوع الخير وأصله اخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) (٦٩)

ان اخلاصّ العبد لربه عبادة وعملاً هو ينبوع الخير . فما هي أعمال الخير ؟

يورد ابن تيمية حديثاً ورد على لسان موسى عليه السلام : (قال موسى يا رب أي عبادك أحب اليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يطلب علم الناس الى علمه ليجد كلمة تدله على هدى اوترده عن ردى . قال : أي عبادك أحلم ؟ قال : الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه (فذكر في هذا الحديث الحب . والعلم والعدل . وذلك جماع الخير) (٧٠) .

أما تفصيل ذلك فيأتي على الترتيب الآتي :

إنه يعني بالمحبة أن يكون القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين . ويضرب مثلاً على ذلك بيوسف عليه السلام الذي كان محباً لله مخلصاً له فوصفه تعالى بقوله (لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين) يوسف ٢٤ ، بعكس امرأة العزيز التي كانت مشركة فابتليت بالعشق . ولا يبتلى به احد الا لنقص توحيده وايمانه . ولكن القلب المنيب الى الله الخائف منه يصرف عنه محبته الى غيره ، ويدفعه الى فعل الطاعة محبة لله وخوفاً منه – ولما كان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية – فان المؤمن كلما فعل الطاعة وترك المعاصي ، قوي حبه لله وخوفه منه (فيزيل ما في القلب من محبة غيرة ومخافة غيره) (٧١). وقد بيّن الله ان محبته توجب اتباع الرسول بقوله تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ٣١ آل عمران . فالاتباع للرسول صلوات الله عليه تؤدي الى محبة الله للعبد . فدليل المحبة الاتباع والتقيد بقواعد الشرع . بعكس الذين زعموا محبة الله ولم يتقيدوا بشريعته ، اذ قالت اليهود والنصارى « نحن ابناء الله واحباؤه » ١٨ المائدة . وهذا ادعاء للمحبة دون دليل مع ما فيه من مخالفة الشريعة ما لا

---

(٦٥) ابن تيمية / مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٢٣٤
(٦٦) المصدر نفسه ص ٢٣٤/٢٣٥
(٦٧) المصدر نفسه ٢٣٤
(٦٨) المصدر نفسه ٣١٠
(٦٩) المصدر نفسه ٢٣٥
(٧٠) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٨٥
(٧١) أمراض القلوب وشفاؤها ص ٣٠
(٧٢) التحفة العراقية ص ٨٣

يوجد في أهل الخشية . ولهذا قرن الله الخشية بها في قوله تعالى : (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقول منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود)

والعلم أيضاً أحد البواعث على فعل الخير ، والعلم النافع هو أصل الهدى الذي يؤدي الى العمل الحق وهو الرشاد . ومصدر الضلال العمل بغير علم كما ان سبب اتباع الهوى هو الغي قال تعالى ؛ (والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) النجم . وكان معاذ بن جبل يرشد الى طلب العلم والحث عليه . قال : (عليكم بالعلم . فان طلبه لله عباده . ومعرفته خشية . والبحث عنه جهاد وتعلمه لمن لا يعلمه صدقه . ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد . به يمجد ويوحد . يرفع الله بالعلم اقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم . وينتهون الى رأيهم) ، ولذا فان ابن تيمية يذهب الى ان الدين كله هو علم بالحق وعمل به . (٧٣) .

أما عن العدل كأساس لكل خير . فان من رأي الشيخ السلفي ان صلاح حال الانسان في العدل وان فساده في الظلم (٧٤) . وتتضح ضرورة اقامة العدل والحكم به من قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . ان الله قوي عزيز) الحديد ٢٥ (فذكر الله انه انزل الكتاب والميزان وانه انزل الحديد لاجل القيام بالقسط . ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر) (٧٥) .

كما حرم الله البغي بغير الحق . فالعدل أساس استقامة أمور الناس وان اشتركوا في أنواع من الاثم . ولا تستقيم أمورهم مع الظلم في الحقوق . وان لم يشتركوا في الاثم . ولهذا قيل : (ان الله يقيم الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وان كانت مسلمة) (٧٦) . وقد جاء الحديث أيضاً محرّماً للظلم . اذ قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطعية الرحم) . فبيّن الحديث ان الباغي والظالم يصرعان في الدنيا بالرغم من احتمال ان يصبحا مرحومين في الاخرة .

والنفس الانسانية فيها داعي الظلم لغيرها بواسطة العلوّ عليه ، والحسد له والتعدي عليه في حقوقه . كما انها تظلم نفسها (بتناول الشهوات القبيحة كالزنا وأكل الخبائث) (٧٧) . ولهذا شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتضييق الخناق على الأعمال الناجمة عن ظلم الناس بعضهم لبعض . وظلمهم لأنفسهم بفعل المنكرات . ويؤمر المؤمن بما فيه من داعي الخير الذي يدعوه الى العلم والصدق والعدل وأداء الأمانة . أن يقابل السيئات بضدها من الحسنات (كما يقابل الطبيب المرض بضده فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه . وذلك بشيئين ، فعل الحسنات وترك السيئات (٧٨) .

---

(٧٣) المصدر نفسه ص ٥٨
(٧٤) امراض القلوب وشفاؤها ص ٣١
(٧٥) التحفة العراقية ص ٤٢
(٧٦) الحسبة ص ٨٦
(٧٧) نفس المصدر والصفحة
(٧٨) نفس المصدر ص ٩٢